I- لسانيات النص : ماهي ؟

لسانيات النص مصطلح يدل على اتجاه جديد في البحث اللساني، لم يلق التوحيد من الجانبين، لا عند منظريه، حيث نجد هارفج (Harveg) يستخدم "Textologie" للدلالة على هذا الإتجاه وهو مصطلح أكثر قبولا – عند سعيد حسين بحيري – في حين استخدم درسلر (w.Dressler) – علم دلالة النص – وعلم نحو النص، والتداولية النصية، في حين آخر يرى سوينسكي (Swinskie) أن المصطلح الأنسب، والذي يعتبره جامعا لكل البحوث المتعلقة بالنص، ونموذج النص داخل علم اللغة، وهو مصطلح " لسانيات النص" (Texte linguistique)، ولا عند المترجمين، لأننا نجده مصطلحا قوبل بترجمات عدة: " علم اللغة النص"، " علم اللغة النصي"، " نحو النص"، " الألسنة النصية"، " علم النص"، "سياسيات الخطاب"، لكن أنسبها " لسانيات النص".

تعتبر" لسانيات النص" فرع معرفي جديد تكون بالتدرج في النصف الثاني من الستينات والنصف الأول من السبعينات، يهتم بدراسة النص بإعتباره الوحدة اللغوية الكبرى وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها الترابط أو التماسك و وسائله وأنواعه والإحالة وأنواعها، والسياق النصي، ودور المشاركين في النص (المرسل والمستقبل)، وعليه توجب على اللساني النصي «أنه علم شامل، ولا على أنه أيضا "علم النص" بمفهوم فان ديك (VanDijk 1980)، بل يجب على عالم اللغة النصي أن يبقى بحثه محصورا في أبنية النصوص وصياغتها مع إحاطته بالعلاقات الإتصالية والإجتماعية والنفسية العامة»[1]

إذن يجب تناول الشروط الإتصالية لتوظيف النصوص – في الدراسات النصية – لكن من جهة أخرى، لا يجب على لسانيات النص أن تستبيح لنفسها الرغبة في الكشف عن الفصائل والوحدات

ذات العلاقة بالسياقات الإجتماعية في أبحاثها الخاصة، لأن التشـخيص المناسـب لهـذه الوحـدات الأساسية يتطلب وسائل أخرى غير تلك التي يملكها هذا الفرع اللغوي، حيث نجد مـثلا، «أن أبنيـة النصوص ليست في الواقع إلا نتائج عمليات نفسية، مما يسمى لقطـات سـريعة لإظهـار نتـائج الإجراءات الإدراكية على السطح»، وهذا ما يجعل وظيفة لسانيات النص تقتصر علـى الإهتمـام ب" بنية النصوص اللغوية وتوظيفها في الإستعمال، وتحمل على تأسيس النص على قاعـدة الـنص لا غيره ومراعاة الفضاءات الذهنية (المشتركة بين مبدع النص ومستقبله) [2]

وهذا ما يتضح في تعريف اللغوي الألماني روك (Rook) إذ يقول: «أخذت اللسانيات النصـية بصفتها العلم الذي يهتم ببنية النصوص اللغوية وكيفية جريانها في الإستعمال شيئا فشـيئا مكانـة هامة في النقاش العلمي للسنوات الأخيرة، فلا يمكن اليوم أن نعدها مكملا ضروريا للأوصاف اللغوية التي اعتادت أن تقف عند الجملة معتبرة إياها أكبر حد للتحليل بل تحاول اللسانيات النصية أن تعيـد تأسيس الدراسة اللسانية على قاعدة أخرى هي النص ليس غير، لكن هذا لا يعني أننا نعتمد المعنى المتداول بين الناس للنص (نص مكتوب عادة ما يأخذ شكل منتوج مطبوع)، بل ينبغي أن ندرج فـي مفهومنا للنص كل أنواع الأفعال التبليغية التي تتخذ اللغة وسيلة لها»[3]

وقد أشار إلى هذا إبن خلدون في قوله: «فلهذا كان فن تأليف الكلام منفردا عن نظر النحـوي والبياني والعروضي»، وكان به سعي إلى ضرورة اتجاه لساني ينتقل من نحو الجملة إلى نحو النص أو بمصطلحه " فن تأليف الكلام ".....

وتجدر الإشارة في آخر الأمر إلى بعض الدراسات أو الإتجاهات التي جعلت النص محورا لهـا وأساسا، ومن بينها " تجزئة النص" لصاحبها (فاينريش H.Weinrich) الذي صرح أن يقدم نهجـا جديدا في معالجة النص، هذا الأخير، الذي يعتبره: «كلية مترابطة الأجزاء، فالجمـل يتبـع بعضـها

بعضا وفقا لنظام شديد، بحيث تسهم كل جملة في فهم الجملة التي تليها فهما معقولا، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى في فهم الجمل السابقة عليها فهما أفضل» [4].

ونجد اتجاه آخر" نحو النص" لصاحبه فانديك (T.A.Van.Dijk)، التي تعتبر محاولته هي أكثر المحاولات توفيقا، حيث يسعى من خلالها إلى صياغة نموذج تحليل النص، حيث قدم معايير ترجع أغلبها إلى النحو التوليدي التحويلي بشكل خاص مثل: الحذف، الإضافة، الترتيب (إعادة الترتب) وغيرها، هذا في معالجة الأشكال النحوية، أما عن معالجة الأشكال الدلالية، فقد استعمل الإستبدال أو الإجلال، بالإضافة إلى المجاورة والإزدواج والتوازي والمشابهة وغير ذلك، ولم يقتصر تحليله على عناصر دلائلية ونحوية فقط، بل إنه عملية التواصل والسياق، وعناصر تداولية أخرى كثيرة، ويرى أنه لا يمكن الإستغناء عنها لفهم النص، وتفسيره [5] ففهمه لسانيات النص – ومن هذا المنظور– وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بكل مستوياتهما المختلفة (النحوية التركيبية، الدلالية، التداولية، السياقية...) لأن للقارئ القدرة على انتاجها وفهمها وتفسيرها في إطار نظرية دلالية وتداولية، نحوية الأساس.

وذلك سعيا منه للوصول إلى نظرية كلية للنص، تعالج كل جوانبه، فكانت في البداية نظرات جزئية أخذت في التلاحم شيئا فشيئا، ثم تضاعفت عند مكونات النظرية النصية لديه، حتى تمكن من عقد نموذجه التحليلي للنص إلى حد استحال معه فهمه دون معرفة جيدة بقواعد المنطق والأسس الفلسفية أو المعرفية والتداولية العميقة للنص والتحليل معا. [6]

يقول فان ديك: «يبدو في الواقع، أن الحقائق الأكثر تمييزا للنصوص، أنها توجد أساس في المستوى الدلالي وكذا في المستوى التداولي» [7]، كما وصف فان ديك (Van.Dijk) هذه النصوص من خلال قواعد إرجاعية أو هياكل (تخطيطات) قاعدية وصفها متوالية من الجمل، وبعض المتواليات مقبول، وبعضها غير مقبول، كأن لا يكون قابلا للفهم.

وهذا ما يحيلنا إلى بعض قواعد النحو التوليدي التحويلي الخاصة بإنتاج الجمل، وقدرتنا على ذلك، لكن بشكل متطور تفرضه الرؤيا الخاصة للنص من قبل فان ديك؛ لأن النحو التحويلي التشومسكي –عنده– عبارة عن نحو الجملة : حيث تكون الجملة هي المقصد الأساسي، التي يسعى من خلالها إلى تجسيد مبادئ للجملة وصياغتها وتفسيرها وفهمها والحكم عليها: لأن الشخص المتكلم فيها إذا فهم مبادئ صياغة الجملة سوف يكون قادرا على تطبيقها على أية جملة حتى الجملة التي لم يسمعها من قبل والعكس. [8]

ومن هذا المنطلق يمكن لمستخدم اللغة–عند فان ديك– أن ينتج ويولد العديد من النصوص المقبولة وغير المقبولة لما له من قدرة على فعل ذلك، وعلى " علم النص " وحده دون غيره أن يبين النصوص النصوص المقبولة ويعطي قواعد أو نحو بنائها، يقول ديك : «ونحن ننتظر من النحو النصي – من بين ما ننتظر منه – أن يحدد الشروط التي يطلب من المتوالية أن تفي بها لكي تكون مقبولة»[9]، غير أنه لا ينطلق من نموذج نحوي صارم، بل يطعم نحوية النص هذه – بما يملك من مفاهيم دلالية– تواصلية، تداولية، سياقية، وعيا منه بأن النص أي نص مفتوح على دلالة عديدة، ومنه أجل تغييره بدقة، لابد لهذا المزيج أن يتحقق وإلا كان تفسيرا عاجزا وقاصرا.

كما ظهر إتجاه ثالث عرف بـ " التحليل التوليدي للنص" لصاحبه بتوفي (S.I.petofi)، الذي حاول أن يقدم عدة أشكال لوصف النص وتحليله، فانطلق من رؤية جوهرية واضحة اعتبرت النص وحدة كلية، كما رأى أنه من الضروري أن تكون النظرية نحوية الأساس – متأثرا في ذلك بتشومسكي – فقدم ما يعرف بـ " البنية العميقة للنص " [10]، أهم ما قدم النحو النصي التوليدي التحويلي، محاكيا بذلك النحو التوليدي الجملي لتشومسكي، ويكون بذلك بتوفي قد فتح المجال بالنسبة لمنظري نحو الجملة، أن يمروا من مستوى الجملة إلى مستوى أعم وأشمل، إنه " نحو النص " [11] محاولا – بذلك – أن يحقق توازنا معقدا بين عالم واقعي فعلي يطلق عليه بنية العالم

(welt struktar)، وعالم إبداعي تحقق في بنية النص، لأنه لا يكفي الكشف عن العلاقات الداخلية التي تمتد داخل النص، وتظهر في معانيه ومعاني أبنيته بل يجب أن يتبع ذلك التحليل، لـــنظم تلـــك المعاني الخارجية التي يحيل إليها النص، وهي ما يطلق عليها المعـــاني الإضـــافية أو الإشـــارية أو الإحالية أو التداولية وغيرها. [12]

الهوامش:

1- فولفجانع هاين منيه وديتر فيهيفجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية، 1419/1998 هـــ، ص 21.

2- صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص 163.

3- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة ، الجزائر، 2000، ص 167-168.

4- إبن خلدون، المقدمة ، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت، ط1416،1/1996، ص 571.

5- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص (المفاهيم والإتجاهات)، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجان، مكتبة لبانر ناثرون، ط1، 1997، ص 307.

6- ينظر: سعيد حسن البحيري،المرجع نفسه، ص 220-221.

7- فان ديك، النص بيانه و وظائفه، ص 55.

8- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 41-42.

9- فان ديك،المرجع نفسه، ص 51.

10- فولفانج وديتر،المرجع نفسه، ص 54.

11- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغـــرب، ط1، 1989، ص 18-19.

12- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 257.